صورة الكون في الفكر البوذي

الماندالا

د. ناصر الشاوي

ظهرت صورة الكون- الماندالا (Mandala) على عدد من الأعمال الفنية البوذية من عمارة ونحت ورسم، ومع أن صورة الكون في الفكر الهندي تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة فإن الهدف من هذا الموضوع هو تعرف الفكرة العامة للصورة الافتراضية للكون في الفكر البوذي من خلال استعراض وتحليل بعض الأعمال الفنية التي وصلت آثارها إلينا.

مصطلح ماندالا في اللغة السنسكريتية يعني "دائرة" أو "قرص" كما يفيد أيضاً معنى "مركز"، والمراد بالدائرة أو المركز هنا مخطط سحري تجريدي يراد به "الكون كله" بالمعنى المطلق للكلمة، إذ تمثل الاتساع غير المتناهي وغير المحدود، أو " هو موجود بفعل قوة الخلق". ويعادل فيها "المربع"، "الأرض" بالمعنى المطلق، أو " هو على الأرض من صنع الإنسان أو خلقه"، لذلك فهو يشير إلى العالم الدنيوي المحدود و يمكن الحصول عليه من التجربة والعمل، وهذه كلها تتحرك باتجاه المركز الذي يكون دائرياً لا بداية له ولا نهاية، ولا تحرز فيه أي نقطة تميزاً على نقطة أخرى .(Rowland: 456)

إن البدايات الأولى لمعرفة الكون في الفكر الهندي تعود إلى الديانة الهندوسية (Hinduism) التي تعود بجذورها إلى حضارة وادي السند، وقد تبلورت في المدونات الفيدية- كتب الفيدا (Veda) المقدسة التي يعود بداية تاريخها الشفوي إلى نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. إن مصدر الحكمة في المدونات الأولى هو استيعاب الحقيقة والتعرف عليها بشكل مباشر، حيث يتمكن من كشفت عنهم الحجب من الحكماء من رؤيتها على الرغم من كونها غير مرئية أو مدركة بالحواس لباقي

البشر. وعندما أريد وضع مخطط مرئي يمثل نظام الكون أو يصوره ليمكن إدراكه من قبل المتعبدين تم ابتداع صورة الماندالا، فالمخطط إذن يمثل رسما للمعرفة البشرية لما هو غير محدود، ويصور التساوق المتكامل للعمليات العقلية التي يفترض أن تقود في النهاية إلى فهم عملية تناغم الوجود وما يطرأ عليه من تبدل أو تحول، فمعرفة الحقيقة يتم التوصل إليها بوساطة القوى الروحية المتأصلة في الطبيعة الأساسية للإنسان الحي لا من خلال المعرفة العقلية الفيزيائية، والماندالا على هذا الأساس هي: "تشكيل رمزي لكل شيء في الوجود ابتداءً من مجراته وانتهاءً بأصغر شيء حي فيه، أو دورة تغير أو تبدل أو موت أو حياة على مدار الزمن". إنها تصور الأرض والإنسان كليهما وأصغر حجيرة أو ذرة مكونة للمادة الحية وغير الحية. وتعد الأرض وما عليها في الوقت نفسه حجيرة مكونة للكون الذي لا يحد اتساعه اتساع، كما تعد الإنسان معادلاً للكون وفيه تتلخص صورته ووجوده.

ركبت الماندالا تشكيلياً على وفق ثلاثة أنظمة: الأول على شكل مربعات متداخلة مع بعضها البعض، والثاني على شكل دائري لا بداية له ولا نهاية، والثالث يجمع بين النظامين السابقين أي المربع والدائرة. ويعد مركز الماندالا نقطة الابتداء فيها، فهو يمثل مركز الكون الذي تنبعث منه الأشعة غير المتناهية، الذي تبدأ منه الحياة وإليه تعود. يمثله في العمارة مخطط الأسطبة (Stupa) ومركزه في هذه الحالة هو البوذا ممثلاً برماده المدفون في قلبها.

العناصر التي تتألف منها الماندالا لا تحمل لذاتها معانٍ رمزية خاصة بها، إنما هي في الواقع تدل على ما هو أبعد وأعمق من معانيها المباشرة على الرغم من إمكانية تفسيرها على إنفراد، ولا تكتمل في تعبيرها عن الكون إلا في تجمعها في هيأة موحدة على الصورة التي هي عليها لتكمل بعضها بعضا، ولتعطي بالنتيجة

صورة مكتملة للكون لا تقبل التغيير أو التبديل إلا وفق نظام شامل. إن اجتماع العناصر وتنظيمها يحاكي تنظيم الكون ويمثل العلاقة بين أجزاءه أو عناصره التي لا يمكن أن يصيبها خلل أو يطرأ عليها تغيير، فالماندالا على وفق هذا الفهم هي: تشكيل مرئي يمثل الكون الكبير غير المتناهي الأبعاد، وهي في الوقت عينه تصور أصغر الأشياء وأدقها، وهي التشكيل المرئي للقوة غير المرئية التي تحكم الكون كله وتنظم علاقاته، وتتمثل فيها كل الأشياء.

آمن أتباع الديانة البوذية أن البوذا سيدّهارتها غاوتاما (Siddhartha Gautama)، الذي وصل إلى مرتبة الإشراق والاستنارة أو الصحوة، هو حاكم الجهات الأربع للكون وهو في الوقت نفسه يمثل مركز الكون. اكتمل هذا الفكر خلال القرن الثامن الميلادي أي خلال مرحلة الماهايانا (Mahayana)، ودليل ذلك الماندالا التي تُظهر، في المركز، البوذا فايروكهانا (Virochana) حاكم العالم- دهارما كايا (Dharmakaya)، الذي يعده أتباعه الأجّل الأعظم، ويرون أن صوره الأخرى وكل الآلهة الآخرين هي تجلياته هو بحسب ما تقتضي المناسبات والأزمان المختلفة. يحيط بالبوذا المركزي أربعة بوذا آخرون يحتل كل واحد منهم واحدة من الجهات الأربع وهؤلاء هم: أموغهاسيدّهي (Amoghasiddhi) الذي يمثل الشمال، وراتناسامبهافا (Ratnasambhava) الذي يمثل الجنوب، وأميتابها (Amitabha) الذي يمثل الغرب، وأكشوبهيا (Akshobhya) الذي يمثل الشرق (Rowland: 456). وقد ربط رولاند بين هذا التكوين وبين الحواس الخمس والعناصر الخمسة (Rowland: 57) . ويمكن للمتصوفين من رجال الدين البوذيين من إدراك تلك الحالة والانفصال عن العالم المادي، من خلال تركيز بصرهم على رسم للماندالا أو على صورة البوذا، أو على أحد الآلهة الذين يمثلونه المرسومة في مركزها، حتى يبلغوا حالة الاتحاد معه

روحيا، ويكونوا بذلك قادرين على معرفة وإدراك ما لا يدرك بوسائل المعرفة الاعتيادية، ويمكنهم عند ذلك فعل الخوارق وما لا يستطيع عموم البشر فعله.

من أهم الأمثلة على صور الماندالا المؤلفة من صور البوذا هو الرسم الموجود على قبة مزار كهف باميان (Bamyan) في أفغانستان، الذي يعود تأريخه إلى الفترة الكوشانية ـ الساسانية، أي القرنين الخامس ـ السادس الميلادي، وهي محفوظة في متحف كابل. يظهر في مركز الماندالا البوذا وهو محاط بأحد عشر بدهيساتفا (Boddhisattva) يشكلون دائرة حوله (Graven: 98) (شكل١).

وربط أتباع الديانة البوذية بين صورة الكون والمخطط الذي تقام عليه الأسطبة، والأخيرة كانت محفزاً لها، لاحتواء الاسبطة على شيء من رماد البوذا، فضلا عن المخطط الشبيه بالماندالا الذي تقام عليه ويصبح مخفياً فيها، عدت رمزاً لقوة مركزية تمثل قوة الوجود، أو المركز الخالص للقدرة غير الظاهرة للعيان لاسيما في مرحلة الماهيانا (Mahayana) التي انبثقت عنها تجليات البوذا جميعها وأشكال الحياة،كلها وهي التي يعود إليها كل شيء في الختام (Snellgrove: 137). ولما كان محيط الأسطبة دائرياً أصبح المخطط الرمزي للكون بحسب هذا الفهم دائرياً أيضاً ووزعت عليه الرموز المقدسة الأخرى على شكل دوائر متحدة المركز.

تظهر العلاقة بين مخطط الأسطبة والماندالا في تشكيل أسس أسطبة ناغارجوناكوندا (Nagarjunakonda) في ماغادها (Magadha) (شكل ٢) التي يعود زمن إنشائها إلى القرن الثاني الميلادي، إذ يغي مخططها رسماً سحرياً يمثل محاور الكون، فيما يمثل نظام تصفيف الخلايا الداخلية المتكونة من تقاطع الجدران وأعدادها رسماً للكون (Rowland: 213).

وربط أتباع الديانة البوذية في عمارة معابدهم بين صورة الماندالا وبين خارطة الأسس التي تقام عليها تلك المعابد، وهذا ما يبدو جلياً في مخططات معبدي بايون (Bayon) في كمبوديا وبارابودور (Barabudur) في جاوه. (٤١٠-٤١٥، ٤٤٨-٤٦٠:Rowland). في هذين المعبدين يلاحظ أن الماندالا أو صورة الكون كانت هي الأساس الذي أعتمد في إنشاء المخطط العام والأجزاء التفصيلية لهما.

أقيم معبد بايون أول الأمر في بداية القرن الثالث عشر، وتم تحويره مرات عدة خلال مرحلة الماهايانا. يتألف مخطط المعبد من عدد من المربعات المتحدة المركز، وله قاعدة مدرجة مرتفعة، تُذَكِّر بشكل من الأشكال بالهرم المدرج، وتكون في أعلاه الغرفة المقدسة. وكأن المعبد هنا في عمارته يحاكي جبل العالم الأسطوري مرو (Meru) الذي يمثل المركز السحري للكون، أو كما هي الحال مع جبل كايلاش ((Kailasa. وإذا كانت مخططات المعابد والأسطبة في شكلها الأول تمثل مخطط الكون السحري غير المنظور بشكل مباشر، فانه يمكن عد أسطبة أو معبد بارابودور ماندالا حقيقية مقامة من الحجر.458 :Rowland)).

بني معبد بارابودور، الذي يعد أهم نصب معماري بوذي يمثل اكتمال فن العمارة البوذية في قارة آسيا، بتكوين هرمي من قسمين يتألفان من تسع مستويات أو طبقات. يشتمل الأول على خمس مستويات مربعة تعلوها ثلاثة ممرات مكشوفة، ويتكون الثاني من أربع مستويات أخرى تحتوي على اثنتين وسبعين أسطبة جرسية الشكل، وتحتل المركز أسطبة صلدة (شكل ٣- ١ و٢).

يرى المختصون أن هذا المعبد يمثل نسخة سحرية للكون، فالجزء الأسفل منه الذي يتمثل بالطبقة الأولى يصور العالم المادي أو عالم الرغبة والشهوة. وقد تم

دفنها ترميزاً لكبح الرغبة والسيطرة عليها. يذكر هنا أنه يعتقد أن جبل "مرو" يتألف من تسع طبقات أيضاً، ويمتد داخل باطن الأرض ليصل إلى أساس العالم (Rowland: 452). تفيد عملية دفن قاعدة المعبد في حصول تشابه سحري بينه وبين جبل مرو. تمثل كل طبقة من طبقات المعبد عالماً منفصلاً أو دورة من دورات الحياة، وفي حين تكون المستويات الأولى مزينة بمنحوتات بارزة تصور البوذا في تجلياته المختلفة، فإن المستويات الثانية الأعلى تكون خالية من أي منحوتات، والانتقال إليها يعني الانتقال من العالم المادي أو من البسيط المفهوم إلى العالم الروحي أو العالم الخفي، الذي لا يدركه إلا أولئك الحكماء الذين بلغوا مرحلة التنوير (Enlightenment).

إن معبد بارابودور، برأي رولاند، يمثل مندالتين الأولى مشكلة بتماثيل البوذا المعروضة بالقاعات أو الطبقات الخمس الأولى، وهي تشبه بتشكيلها الماندالا التي تظهر على القاعة الرابعة التي يظهر فيها البوذا فايروكانا في المركز وهو محاط بأربعة تماثيل تصور تجلياته المسؤولة عن حراسة الجهات الأربعة، والثانية مشكلة بالأسطبة المركزية التي تمثل البوذا الأعظم وهو محاط باثنين وسبعون بوذا آخرون ممثلون بالأسطبات المثقبة المحيطة بها. وهاتان المندالتان مرتبطتين مع بعضيهما البعض بشكل تام، إذ تمثل أحداهما ماندالا العالم المادي وتمثل الثانية ماندالا العالم الروحي، ويشرف على كل واحدة منهما البوذا الخالق فايروكانا، ويشبهان بذلك ماندارا كونغوكي ((Kongokai وماندارا تايزوكي (Taizokai) (٤٥٩ :Roland) المرسومتان على الحرير واللتان تعودان إلى زمن سلالة هيان (Heian) نهاية القرن التاسع الميلادي:

يتم أداء طقس الارتقاء إلى قمة المعبد، المعروف بمصطلح براداكشينا (Pradaksina)، عن طريق صعود طريق يلتف حلزونياً يسير مع اتجاه عقارب الساعة، ويكون كتف الزائر الأيمن باتجاه الجدار، ليكون الانتقال من العالم الدنيوي إلى العالم الروحي موافقاً للحركة الظاهرية للشمس إي (شرق، جنوب، غرب)، حيث يسير الزائر متوافقاً مع حركة الكون، كما هي الحال في عملية الطواف حول الأسطبة التي تمثل ماندالا حقيقية (Graven:71-72). إن الصاعد إلى قمة المعبد من المتعبدين يمارس طقساً كأنه به يمارس عملية الارتقاء إلى قمة الكون ممثلة بالأسطبة المركزية، بهذا المعنى يكون كل مستوى من مستويات معبد بارابودور يمثل عالماً منفصلاً أو مرحلة من مراحل الارتقاء الروحي للمتعبد، الذي يمارس خلال الصعود عملية الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أعلى تاركاً العام المادي، وفي ذلك ارتقاء من الدنيوي الفاني، إلى الروحي الخالص الذي يمثل المعرفة الصادقة التي تدرك من خلال الروح لا العقل والمادة.

دخول معبد بارابودور يعني للحاج الدخول إلى عالم البوذا، إذ يشاهد على المنحوتات صورة رحلة الإنسان من الولادة إلى الموت حتى يصل في نهاية المطاف إلى مرحلة التنور متمثلة بقمة الهرم التي هي مركز الماندالا، وعندها يتمكن المتعبد من الارتقاء إلى النيرفانا (Nirvana) المرحلة الأخيرة التي انتهى إليها البوذا بعد وفاته، وهي مرحلة الخلاص والإنعتاق وكسر دورات إعادة الخلق والولادة بالانتقال من العالم المادي الزائل والاتحاد مع الكل المطلق الشامل الأزلي.

ويؤكد بعض الباحثين أن فن العمارة بعد فترة غوبتا (Gopta)، أي نهاية القرن السادس الميلادي، ينظر إليه الهندوسي أو البوذي أو الجيني، على أنه مقام على أسس ميتافيزيقية، وهو شكل من الأشكال ونوع من الاستنساخ السحري لمكان خارج

العالم المادي، أو أنه تشكيل لكائن مقدس. وإن هذا العامل الفائق للطبيعة هو الذي يحدد مخطط المعبد قبل مقتضيات الوظيفة أو متطلبات الجمال. إنه باختصار بيت الإله الذي يسكن فيه، وهو في الوقت نفسه بكل أجزائه يمثل مادته (Rowland ٢٧٤): أو جسده.

بهذا الفهم يمكن القول إذن أن الماندالا، المخفية في أسس مخططات المعابد والأسطبات، هي مخطط سحري يصور الكون الذي لا يمكن أن تدرك الحواس كل شيء فيه. وبوجودها مخفية في مخططات الأسطبات والمعابد يتمكن أتباع الديانة البوذية، أثناء الزيارة والحج الطواف حول الأسطبة، من السمو والانتقال من العالم المادي إلى العالم الروحي وفهم حقيقة الوجود.

في مرحلة فاجرايانا (Vajrayana) عملت مصغرات برونزية لأسطبة تمثل ماندالا حقيقية ثلاثية الأبعاد عثر على واحدة منها في نالاندا (Nalanda) شمال الهند، ويعود زمنها إلى القرن التاسع الميلادي. صور على الزوايا السفلية منها تماثيل تصور بدهيستفا (Bodhisatva) يمثلون حراس الجهات الأربع الرئيسة والجهات الأربع الثانوية التي بينها. يعلو مصغر الأسطبة منحوتات تصور المعجزات الثمانية للبوذا (Graven:169-172). في هذه المرحلة تعبد أتباع الديانة البوذية في البنغال و أوريسا وأسام، في فترة بالا (Bala) ،إلى عدد كبير من الآلهة والآلهات، ومارسوا طقوساً صوفية لاستحضارها اشتملت على التأمل العميق، وكانوا يقومون بذلك منفردين أو مجتمعين وهم يشكلون بجلوسهم دائرة سحرية تمثل ماندالا .(Goetz:157)

اقتران شكل الدائرة بصورة الكون قد لا يكون فكرة هندية خالصة، إذ إن الإنسان عندما خط دائرة على الأرض ربما أراد بها، عن وعي أو دون وعي منه،

التعبير رمزياً عن الكون كله على وفق مدركاته، لكن الجديد في الماندالا هو أنها تصور ممارسة التحول بين العالم المادي والعالم الروحي، أي الانتقال من العالم الذي يمكن التعرف عليه بالحواس من البشر إلى العالم الخفيِ الذي لا يعرف كنهه إلا أولئك الذين يتمتعون بقوى غيبية روحية تفوق قوى الحس والعقل الاعتيادية التي يتمتع بها الإنسان، فالكون وما يحتويه مطلق لا يحده عقل أو يسعه مكان.

والماندالا على أساس هذا الفهم هي: خارطة رمزية للكون الذي لا يمكن إدراكه بصرياً بشكل تام، لذا فهي تسهل على البشر إدراك العلاقات بين ما هو موجود ويمكن التعرف عليه بالحواس أو يمكن إدراكه بالعقل، وبين ما هو غيبي نعلم بوجوده ولا قدرة لنا على إدراكه، الذي ينكشف سره فقط لنخبة مصطفاة من البشر يبلغون بحلمهم الروحي مرحلة الصحوة أو الاستنارة أو الإشراق (Enlightenment) التي تنكشف عندها الحجب كلها. كما هي الحال مع سيدّهارتها غاوتاما المعروف بلقب بوذا.

استخدم أتباع الديانة البوذية الماندالا المرسومة والمجسمة والمؤلفة من المتعبدين أنفسهم في طقوس التعبد والتأمل لتساعدهم في الوصول إلى المعرفة التي يستحيل الوصول إليها بوساطة الحواس أو طرق المعرفة الاعتيادية.

الهوامش:

i. افضل رسم أسم " بوذا " بهذا الشكل " بُده " وهو أقرب عندي في لفضه ومعناه من رسم اللفظ الشائع الذي يعد اسماً لسيدهارتا غاوتاما (sidhartha gautama) وهو في الحقيقة وصفاً له، ويعني الصاحي أو المستنير .

ii. كلمة سنسكريتية معناها (الرؤيا والحكمة)، تطلق على أقدم مدونات دينية هندوسية.

iii. وردت فكرة الجهات الأربع لتعني العالم في حضارة العراق القديم إذ وصف سرجون الأكدي انه ملك الجهات الأربع. صور إله الرعي البابلي وقرينته (؟) إلهة الماء بأربعة وجوه ربما للدلالة على إشرافهم على الكون كله.

iv. مرت الديانة البوذية بثلاث مراحل أو مدارس رئيسة هي : (هنايانا – Hinayana) و (ماهايانا – Mahayan) و(فاجرايانا – Vajrayana) . يراجع : (Thomas:177-178) .

v. هي : الماء والتراب والنار والهواء والأثير أو الهيولي.

vi. مرحلة ما قبل البوذا الذي في طريقه إلى أن يصل إلى أسمى المراحل فتحصل له الصحوة أو الاستنارة والاستشراق ويصبح بوذا.

vii. للمزيد عن جبلي مرو وكايلاش يراجع : (Thomas:9,179) و (Rowland:275,307) .

viii. تعني ماندالا الرئيسين وهما في الحالتين البوذا (فايروكانا – Virocana) .

ix. الطواف حول الأسطبة من اليسار إلى اليمين باتجاه حركة عقارب الساعة يمثل الأفون . يدور البوذيون وهم يتعبدون طبلاً صغيراً بالاتجاه نفسه . الطواف من اليمين إلى اليسار عكس سير عقارب الساعة ، كما يفعل

المسلمون حول الكعبة في مناسك الحج والعمرة يمثل الاشراق والحياة .
ارتقاء مئذنة جامع سامراء المعروفة بالملوية يتم من اليمين إلى الشمال أيضاً .

الاشكال

(شكل ١) ماندالا مرسومة على قبة مزار كهف باميان (Bamyan) في افغانستان.

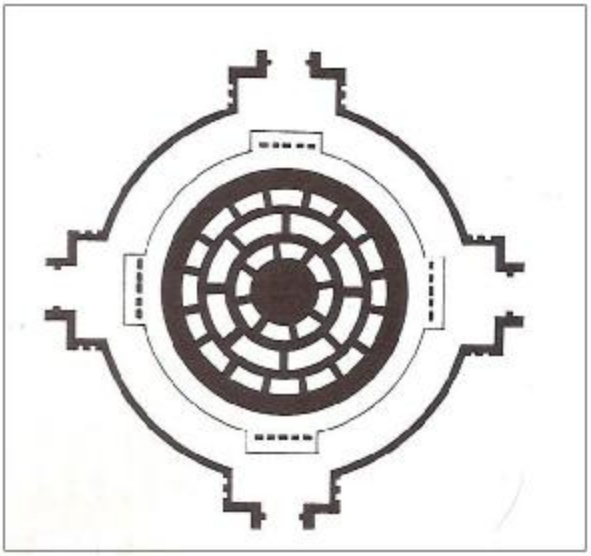

(شكل ٢) : أسس أسطبة ناغارجوناكوندا (Nagarjunakonda) ماغادها (Magadha).

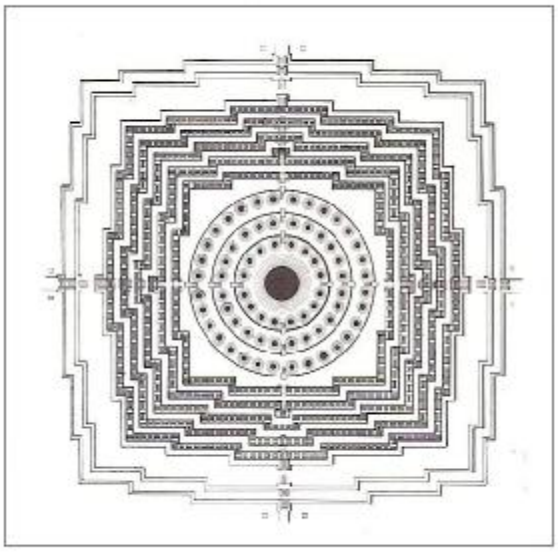

(شكل٣-أ و ٣-ب) : معبد بارابودور في جاوه.

Bibliography

Goetz,Hermann.The Art of India,New York 1964.

Graven Roy,C.A Concise History of Indian art. London 1976.

Lee, Sheram E. A History Of Far Eastern Art. New York 1982.

Rowland, Banjamin.the Art and architecture of India. U.S.A. 1970.

Snellgrove, David L. (ed.) the image of the Buddha. Paris: Unisco 1978.

Thomas, P . Epics, Myths and Legends of Indian, Eleventh Edition, Bombay.